الأديب بين ثقافة الترويج للسلطة، والمقاومة من أجل تحقيق الذات

في قصة "تمثال بلا رأس" لعبد الحميد بن هدوقة

The writer between the culture of promoting power; and resistance for the sake of self-realization

In the story " témtel béla raac" by Abdel Hamid bin Hadouqa

حكيم سليماني. *

جامعة محمد بوضياف . المسيلة (الجزائر)

الملخص:

تتناول هذه الدراسة فكرة تسليع الأدب من خلال تحليل قصة بعنوان "تمثال بلا رأس" للكاتب الأديب الجزائري عبد الحميد بن هدوقة، كتبها في جوان 1987. وتهدف إلى تعرية أساليب السلطة التي تعمل على احتواء الأديب وترويضه، وتكريس أدب يروّج للمؤسسة السياسية والثقافية بانتهاج أساليب الترويج والإغراء عن طريق المسابقات والجوائز، والمال، والتخليد المزيف للعظماء، ومن ناحية أخرى بتفعيل آليات القسر والقهر. حيث يقع الأديب بين مطرقة السلطة، وسندان الحفاظ على الذات.

الكلمات المفتاحية: الأدب، التسليع، السلطة، المال.

Abstract: This study deals with the idea of commodifying literature through analyzing a story entitled "A Statue Without a Head" by the Algerian writer Abdel Hamid Ben Haddouga, which he wrote in June 1987. It aims to expose the methods of authority that work to contain and tame the writer and to devote literature that promotes the political and cultural establishment by adopting methods of promotion and temptation. Through competitions, prizes, money, and false immortalization of the greats, and on the other hand, by activating the mechanisms of coercion and oppression. Where the writer falls between the hammer of authority, and the anvil of self-preservation.

Keywords: Literature , Commodification , Authority , The money.

* حكيم سليماني.

مقدمة:

بعدما كانت مفردات السلعة والتسليع والبيع والترويج والاستهلاك ترتبط بحقل الاقتصاد وعالم الصناعة والتجارة والمال، فإنها اليوم امتدت إلى عالم الثقافة والكتابة والإبداع والفنون، حيث تحولت هذه الأخيرة إلى منتجات مادية تباع وتشترى، وتسري عليها قوانين العرض والطلب والترويج والإشهار تماما مثلما يروج لشتى أنواع السلع والبضائع والأمتعة. وارتبط ذلك الترويج بمؤسسات تهدف إلى الربح المادي بغض النظر عن محمَّلات ذلك المنتَج من أخلاق وقيم، فأضحى الأدب يخضع لفنون الترويج والدعاية والإغراء، أو يُستغل من أجل الترويج لأفكار وقيم تسعى المؤسسات الثقافية والسياسية لأجل ضخها إلى الجماهير وتكريسها لدى العامة بانتهاج أساليب الترويج والإغراء، ومن ناحية أخرى بتفعيل آليات القسر والقهر. وفي هذا السياق جاءت هذه الدراسة التي تهدف إلى تعرية الأساليب والآليات التي تستخدمها المؤسسة في الكتابة والأدب لتقترب من العامة ومن الجماهير، ومن ناحية أخرى لاحتواء الأديب وترويضه وتوجيهه. وذلك من خلال قراءة وتحليل قصة بعنوان "تمثال بلا رأس" للكاتب الأديب عبد الحميد بن هدوقة، كتبها في جوان 1987.

1. **تعريف الكاتب:**

ولد عبد الحميد بن هدوقة في 09 جانفي 1925 بقرية الحمراء التابعة للمنصورة بولاية برج بوعريرج بالجزائر، نشأ في عائلة اشتهرت بالعلم حيث كان والده الذي تلقى العلم في جامعة القرويين بفاس بالمغرب، فقيها ومعلما.

التحق عبد الحميد بن هدوقة بالمدرسة الفرنسية الموجودة في المنصورة. وبالإضافة إلى تمدرسه كان يحفظ القرآن الكريم ويقرأ الكتب.

في سنة 1940، التحق بمعهد الكتانية التابع لحزب الشعب. وبعد شهر واحد من أحداث 8 ماي 1945، ذهب إلى فرنسا ودخل معهد التكوين في تحويل المواد البلاستيكية ونال الدبلوم ليلتحق بمصنع لتحويل المواد البلاستيكية، هناك ولمدة ثلاث سنوات كان له احتكاك بالواقع المرير للمهاجرين الجزائريين.

التحق بجامع الزيتونة في سنة 1949 وإلى جانب دراسته بجامعة الزيتونة، كان يزاول الدراسة بمعهد التمثيل العربي لأربع سنوات.

وخلال دراسته في تونس نال الشهادة العالمية في الأدب من جامعة الزيتونة وشهادة التمثيل العربي من معهد فنون الدراما في تونس.

كان لعبد الحميد بن هدوقة نشاطا سياسيا بارزا في الحركة الطلابية بالزيتونة حيث ترأس جمعية الطلبة الجزائريين بتونس كممثل لحركة انتصار الحريات الديمقراطية، وألقي عليه القبض من قبل السلطات الاستعمارية بتونس بعد أحداث 18 جانفي 1952، وتم نقله إلى سجن المحمدية بتونس، غير أنه تمكن من الفرار والعودة إلى الجزائر.

عمل بالتدريس في معهد الكتانية بقسنطينة. وغداة اندلاع الثورة التحريرية، وفي 5 نوفمبر 1955، جاءته معلومات مفادها أن البوليس الاستعماري سيعتقله، فهرب إلى قريته الحمراء قبل أن يرحل إلى فرنسا مرة ثانية.

واشتغل في معمل للبلاستيك، كما دخل في تربص من سنة 1956 إلى 1958 في الإذاعة والتلفزة الفرنسية وعمل كمخرج إذاعي.

في سنة 1958، عاد مرة ثانية إلى تونس حيث تعاقد مع الإذاعة التونسية تحت إشراف جبهة التحرير الوطني. وقام بإنتاج عديد البرامج الإذاعية أهمها برنامج "ألوان" الثقافي للتعريف بالأدب المغاربي المكتوب بالعربية أو بالفرنسية،بالإضافة لبرنامج خاص بالأطفال تحت عنوان "جنة الأطفال" وإنتاج تمثيليات إذاعية أسبوعية تمزج بين البوليسي والاجتماعي.

وحينما كان بالإذاعة التونسية كتب ما يزيد عن ثلاثين تمثيلية تتعلق بالثورة التحريرية و بالجزائر.

بعد ثلاثة أشهر من نيل الجزائر استقلالها، قرر عبد الحميد بن هدوقة العودة إلى الوطن حيث حط رحاله بالجزائر العاصمة في أكتوبر 1962، ليلتحق مباشرة بالإذاعة والتلفزيون الجزائري ويقوم بتأسيس الفرقة الفنية التابعة للإذاعة والتلفزيون الجزائري.

في 19 سبتمبر سنة 1990 انتخب أمينا عاما مساعدا لاتحاد الكتاب الجزائريين ورشيد بوجدرة أمينا عاما.

تقلد منصب المدير العام للمؤسسة الوطنية للكتاب، ثم رئاسة المجلس الأعلى للثقافة قبل أن يعين عضوا ونائب رئيس المجلس الاستشاري الوطني من قبل الرئيس الراحل مُحَمَّد بوضياف.

بعد اغتيال الرئيس مُحَمَّد بوضياف، يصبح عبد الحميد بن هدوقة رئيسا للمجلس قبل أن يقدم استقالته في 26 جويلية 1993.

وفي 21 أكتوبر 1996، وبعد مرض عضال ألزمه الفراش لحوالي أربعة أشهر بمستشفى مصطفى باشا، يرحل عبد الحميد بن هدوقة عن عمر يناهز الـ 71 عاما، تاركا وراءه إرثا ثقافيا وفنيا وفكريا معتبرا.

آثاره:

ألف كتابا بعنوان (الجزائر بين الأمس واليوم) بطلب من الحكومة الجزائرية المؤقتة، صدر في تونس سنة 1958.

في سنة 1960، ألف مجموعة قصصية تحت عنوان ظلال جزائرية، وفي السنة نفسها، صدرت له الأشعة السبعة.

في سنة 1967، صدر له مجموعة شعرية بعنوان الأرواح الشاغرة.

في سنة 1971، تصدر له أول رواية هي "ريح الجنوب، وفي سنة 1974، تصدر له المجموعة القصصية الكاتب وقصص أخرى.

وفي سنة 1975، صدرت له ثاني رواية وهي نهاية الأمس. في سنة 1980 تصدر له ثالث رواية بان الصبح.

(هدوقة، مثقفون جزائريون، 2018) وله أيضا الجازية والدراويش، أمثال جزائرية...

2. ملخص القصة:

عادة ما يضع الكاتب والشاعر في آخر عمله الإبداعي مكان وتاريخ الانتهاء من الكتابة، وقد أرّخ ابن هدوقة لقصته "تمثال بلا رأس" بعبارة "الجزائر – جوان 1987"، ويبدو أن هذا العمل نشر في مجلة "الحوار" في عددها العاشر شهر فيفري 1988 كما أشار الباحث مصطفى ولد يوسف (ولد يوسف مصطفى، 2013، صفحة 160)، ثم أعيد نشره في مجلة الثقافة التي تصدرها وزارة الثقافة، عام 1995 في الصفحات من 147 إلى 162. تبدأ قصة الأديب الجزائري عبد الحميد بن هدوقة بتمهيد حيث قرأت الشخصية البطلة التي تحترف الكتابة إعلانا في مجلة حول مسابقة في كتابة القصة بمناسبة ذكرى الحرية، موضوع القصة تصوير حياة كاتب يعيش في عهد نظام تعسفي، وتكون الجائزة الأولى أن يقام للفائز بها تمثال في أكبر حدائق المدينة. استسهل الكاتب الأمر في البداية لكنه حين أراد الكتابة بدا له الأمر صعبا، وصعوبة الكتابة تعود إلى أن الكاتب يعيش في ظل نظام ديمقراطي تُحترم فيه الحريات، فكيف له أن يتصور نفسه في مجتمع يسود فيه التسلط و الاستبداد؟ تخيل الكاتب أن من يعيش في نظام كهذا لا بد أن يكون إما انتهازيا أو وصوليا، ولن يكون غير ذلك. وحين استحالت الكتابة عن الاستبداد في الواقع وفي وعي الكاتب ويقظته انتقل إلى حالة اللاوعي حالة النوم وعالم الأحلام، والحلم كتب القصة. حيث حلم الكاتب بأنه كان يسير في طريق مظلم ضائع القصد يحمل زجاجة حبر وأوراقا وقلما، وإذا بصوت يأمره بالوقوف ويمطره بوابل من الأسئلة، ماذا تحمل؟ ومن أين أتيت بالحبر والمتاجرة بالحبر ممنوعة وتهريبه محظور؟ فهل اشتريته من السوق السوداء؟ ولماذا وضعته في زجاجة الخمر؟ وكيف تجرؤ على الكتابة وأنا على قيد الحياة؟ فأجابه الكاتب، بأنه يحمل هذه المستلزمات من أجل الكتابة عن المستقبل وعن أحلامه، وأن زجاجة الحبر تركها له أحد الأصدقاء وكان قد أعدم. ثم سأله إذا كان يدري مع من يتكلم، وأن بزته تدل على جنسيته. وبعدها أمره أن يكتب كلمات (قلما، منجلا، مطرقة، ورقة مالية، بندقية)، وسأله ماذا تمثل هذه الكلمات؟ فأجاب بأنها تمثل توزيع أعمال، فزجره قائلا: إن هذه الكلمات تمثل سادة وعبيدا. كل هذا وهو يدخن السيجارة تلو الأخرى. ثم سأله، من يمثل الأسياد من هذه الكلمات؟ وحين أجاب الكاتب بأنه القلم هجم عليه المستجوب كالوحش وضربه ثم رماه في زنزانة مظلمة، روائحها قذرة، عطِشا يضرب القضبان فيقبل شرطي فيطلب منه الكاتب ماء، فيأخذ

الشرطي زجاجة الحبر ويفرغها في فمه، ثم يدفع الأوراق في فمه، ثم يحشر القلم في مؤخرته. وهو يقول: لا بد أن تلتقي لوازم الكتابة في بطنك كيما تكتب أحلامك في بطنك ولن تر النور.

ثم قيدوه ورموا به في ممر ضيق بالقرب من الجامع أين اقترب منه رجل بدا له من بزته أنه إمام الجامع (يبص علي)، كما قال الكاتب فيبتعد عنه مذعورا حين رأى زجاجة الحبر. وبعدها يمر به رجل من مرتادي الحانات، يشم الزجاجة، يفك وثاقه ويسحبه إلى الحانة القريبة من الجامع، فيتساءل كم بقي في الزنزانة، ساعة أم ليلة أم سنة؟ وهنا استحضار لقصة الفتية الذين فتنوا في دينهم من خلال سورة الكهف.

(الحانة احتضنتني والجامع رماني)، قدموا له زجاجة من خمر، فشربها بعد أن أقلع عن شرب الخمر منذ سنوات، ثم طلب زجاجة ثانية، ويرى النبيذ في الزجاجة وكأنه كوكب دري، رأسه نشف ولسانه جف يتذكر الكلمات، يتذكر أحلامه ، فيقسم أن لا يخدم قلمه مالا ولا بندقية، وأن لا يبيع كلماته.

وحين أفاق من الحلم كان الحلم كتب القصة، والقصة نالت الجائزة الأولى، والكاتب خلد بإقامة تمثال له من المرمر في أكبر حدائق المدينة.

وبعد ما استيقظ الكاتب دخل في حالة من الهوس وامتزج هوسه بأحلامه، فكان نصفه نائما ونصفه يقظا وتمنى لو كان له زوجة وأبناء ليروا سعادته بتمثاله، ويقيم حفلا يدعو إليه كل من يحمل بندقية حتى شرطي الحلم. ثم يزور الحديقة ويرى التمثال وتمر فتاتان بالتمثال فتسخران منه وتشبّهانه بالقرد وبالصنم ويكظم الكاتب غيظه ولا يستطيع الرد عليهما. ثم يخاطبه التمثال لماذا سجنتني وصيرتني حجرا بحثا عن الخلود الزائف؟ اقتلعني أو خذ الفأس وحطم رأسي.

وبعدها يدخل الكاتب في حالة من الجنون حيث يأخذ الفأس ويشرع في تحطيم رأس التمثال. ويأتي الشرطي، أنت مجنون، مجنون !! تخرب الآثار الوطنية. ويحاول الكاتب إقناعه بأنه يحطم رأسه، وأنه في بلد ديمقراطي، لكن دون جدوى.

ويدخل دار إعادة التربية ليعيش حلمه الأسود بلا انقطاع. يحكي قصته للطبيب فيربّت على كتفه قائلا، أعرف ذلك. وحين زاره زميل له ممن لم ينخدعوا بالكلمات البراقة أخبره بأن تمثاله ما زال قائما بالحديقة، لكن بلا رأس، فيتمنى لو أنه سقط.

3. دراسة وتحليل:

1.3. حلم الكتابة أو كتابة الحلم:

إذا كان نظام الحكم يفرض على الرعية أسلوبا واحدا في التفكير ولا يقبل غيره ويحرم المفكرين حرية الفكر وحرية التعبير وحرية النقد، فإنه لا يمكن أن يقوى فيه الإنتاج الفكري، ولا أن يتنوع، وبالتالي يلجأ الكتاب إلى ابتداع طرق ملتوية وقنوات فنية تمكنهم من الإعراب عما في نفوسهم.

إن حيلة لجوء الشخصية القصصية إلى الحلم من أجل الكتابة هي في الحقيقة هروب من الواقع الذي قد لا يجرؤ الكاتب من خلاله على البوح بأفكاره خوفا من نظام قائم أو ثقافة تكرس نمطا معينا من التفكير، أو ربما هروبا من سلطة رقابة الضمير والذات، على العموم هو حيلة ووسيلة فنية يلجأ إليها الكتاب للسرد على ألسنة أبطالهم من أجل البوح بما في صدورهم من أفكار ومواقف، بوح يحمل الكثير من المرارة والألم وتصحبه سخرية وتهكم لاذعان من واقع الحياة وملابساتها، وهذا يبدو جليا في سخرية الفتاتين من تمثال الكاتب "متى جيء بهذا القرد الحجري إلى هنا؟ (...) ها ها ها! إنه يشبه القرد تماما صدقت (...) دعينا من هذا الصنم" (هدوقة ع.، 1995، صفحة 159) بل إن الكاتب يصرح بلفظ السخرية على لسان التمثال "أقلعني من هنا، أرجوك! لا تتركني هكذا، سخرية للساخرين!". (هدوقة ع.، 1995، صفحة 160)

وفكرة لجوء بطل قصة "تمثال بلا رأس" لابن هدوقة إلى الحلم من أجل الكتابة قديمة " وأفقت من الحلم! والحلم كتب القصة!" (هدوقة ع، 1995، صفحة 157)، فقد وردت في كتاب حديث عيسى بن هشام **لمحمد المويلحي** الذي انتقد فيه الكاتب مظاهر التخلف والأوضاع الفاسدة في زمن فساد الحكم التركي في مصر، حيث لجأ البطل الممثّل في شخصية عيسى بن هشام إلى المنام من أجل الكتابة "حدثنا عيسى بن هشام- قال: رأيت في المنام كأني في صحراء الإمام أمشي بين القبور والرجام، في ليلة زهراء قمراء يستر بياضها نجوم الخضراء(...) إذا برجة عنيفة من خلفي كادت تقضي بحتفي، فالتفت التفاتة الخائف المذعور فرأيت قبرا قد انشق من تلك القبور، وقد خرج منه رجل طويل القامة عظيم الهامة(...) فسمعته يناديني، وأبصرته يدانيني، فوقفت امتثالا لأمره، واتقاء لشره(...) ما اسمك أيها الرجل، وما عملك، وما الذي جاء بك؟" (الدسوقي، (د ت)، صفحة 143، 144)، بل إن مساءلة الرجل الدفين لعيسى بن هشام شبيهة جدا بالمساءلة التي تعرض لها السارد في قصة ابن هدوقة "وإذا بصوت يأمرني في ذلك الظلام: قف! ماذا تحمل في يديك؟ ما هذه الزجاجة؟ من أين أتيت بهذا الحبر؟ ألا تدري أن تهريب الحبر ممنوع؟ وضعته في زجاجة خمر، لماذا؟ أتحسب أننا أغبياء؟ ماذا تعمل بهذا الحبر؟" (هدوقة ع، 1995، صفحة 143)

وفي الجزائر كتب **أحمد رضا حوحو**، كتاب (مع حمار الحكيم)، الذي يقرّ بأنه استوحاه من فكرة كتاب توفيق الحكيم (حماري قال لي)، والكتابان كلاهما ينتقد مظاهر التخلف والأوضاع الفاسدة في زمن فساد الحكم، و حوحو هو الآخر لجأ إلى النوم والحلم من أجل الكتابة ومحاورة حمار توفيق الحكيم حول مظاهر التخلف والفساد في الجزائر أيام

الاحتلال الفرنسي : "انتهيت من مطالعة لذيذة لكتاب "حماري قال لي" لتوفيق الحكيم واستلقيت في مقعد مريح بعض الشيء مريح بالنسبة إليّ أنا الذي قضيت ثلاثين حجة من حياتي بين مقاعد الدراسة ومقاعد العمل، وكلها لا تمت إلى الراحة واللين بصلة قريبة ولا بعيدة. ثم استغرقت في تفكير عميق محاولا هضم ما قرأت وما هي إلا دقائق حتى أغفت عيناي وألقى علي الكرى رداء أسودا خفيفا، ورأيت فيما يرى النائم اليقظ حمارا صغيرا لطيفا تبدو عليه علامات الذكاء والفطنة، يطل علي برأسه من وراء مقعدي، فعرفته على الفور دون إشكال أو عناء فقد كان حمار توفيق الحكيم برأسه ورجله". (حوحو، 1982، صفحة 12)

ويذهب علماء النفس إلى أنه حين يتراجع النشاط النفسي أثناء النوم، يدخل النائم في عالم اللاشعور النفسي و يرتخي ويتحرر جزئيًا من المقاومة والتوترات الناشئة عن الكبت الناتج عن الضغوط النفسية في مجتمعه (سيجموند، 1986، صفحة 70، 71). فالحلم يحررنا من المواجهة ويمنحنا الحلول البديلة للتوترات النفسية التي لم يتسن لها أن تشبع في الواقع.

وفكرة لجوء الشخصية القصصية إلى الأحلام والكوابيس أو أحلام اليقظة من أجل الكتابة لدى ابن هدوقة تتكرر في قصته "أطلقوا النار على الكلمات" حيث استهل القصة بقوله: "لست أدري أكان ذلك في حلم، أوفي كابوس، أوفي يقظة خاصة من هذه اليقظات القليلة التي تحدد مصائر الأمور؟". (**هدوقة ع.، قصة "أطلقوا النار على الكلمات"، 1990، صفحة 80**)

فالجهر بالأفكار دونما خوف يحتاج إلى شيء من الجرأة والشجاعة، والأديب لا يعدم سبلا فنية كثيرة من أجل البوح بمكنونات نفسه من أجل نشر الوعي من جهة وإحداث المتعة الفنية من جانب آخر.

2.3. فكرة التسليع، والترويج للسلطة:

ورد في لسان العرب مادة (سلع) السّلعة ما تُجِر به، وهي المتاع وجمعها السلع، والمسْلع صاحب السلعة.

وفي شرح مصطلح تسليع في دليل مصطلحات "هارفارد بزنس ريفيو"(Harvard Business Review) ورد بأن "التسليع (commoditization) هو تحويل الأشياء المعنوية التي لا تباع إلى سلعة استهلاكية قابلة للتداول والمضاربة، كما يشير بالمعنى التجاري إلى عملية تحويل منتج أو خدمة ذات خصائص مميزة وفريدة ولها علامة تجارية إلى سلعة قابلة للتداول كباقي السلع المماثلة من نفس الفئة بسعر يلائم جميع المستهلكين" (**ريفيو، 2020**)، فمفهوم التسليع حديثا امتد إلى عالم الثقافة والفكر والأدب والفنون، أي أنه صار وثيق الصلة بالإنتاج الفكري بشكل عام بعدما كان يدور في فلك الصناعة والتجارة والاقتصاد أو الإنتاج المادي الذي يخص السلع والبضائع والمتاع.

وحقيقة الحال أن عبارة تسليع الأدب وتسليع الثقافة وإن كانت حديثة الاستعمال إلا أنها كفكرة وممارسة قديمة من حيث الوجود والممارسة في مختلف المجتمعات وفي المجتمع العربي بشكل خاص. إذ أن المؤسسة ثقافية كانت أو سياسية كانت تحرص على أن تقرب الكاتب والأديب والشاعر كي يروج لها عند العامة، مقابل إغراءات مادية وامتيازات يستفيد منها. وقد يحدث العكس بحيث يقف الأديب والمؤسسة على طرفي نقيض، وفي هذه الحال تتغير العلاقة بين الطرفين من علاقة الترويج وتبادل المنفعة إلى علاقة الترويض والتدجين، بحيث تسعى المؤسسة إلى تركيع الأديب وتهذيبه ليكون في صفها وفي خدمتها، أو يكون خارج فلك المؤسسة أو ضمن قائمة المغضوب عليهم من المبعَدين والمهمشين الذين يطالهم الإقصاء والتهميش.

والأديب بدوره قد يستسهل الانقياد للمؤسسة وينصاع لتعاليمها، وقد يكون صعب المراس فيلجأ إلى سياسة المهادنة والمداهنة.

فمنذ الجاهلية كان شعر المدح وشعراء المدح، وبالمقابل أشخاص يوجه إليهم ذلك المدح والتسبيح وفي جميع الحالات كان هنالك تبادل للمنفعة، فمن ملوك العرب في الجاهلية المناذرة والغساسنة، ومن الشعراء المداحين النابغة والأعشى، "ولم ير الشاعر بأسا من تلبية حاجة السوق، كشأن التاجر الانتهازي الذي ينتهز الفرص الاستثمارية الطارئة. وكان هذان الشاعران هما الأذكى تجاريا من بين زملاء المهنة". (الغذامي، 2005، صفحة 148)

"ظهرت المدينة الشمالية مع المناذرة والغساسنة، وظهر معها تقليد ثقافي تخلق فيه شخص الممدوح وشخص المداح، وبينهما صفقة متبادلة فهذا يمدح وهذا يمنح، هذا يبيع وذاك يشتري. وجرى تسليع البلاغة والخيال" (الغذامي، 2005، صفحة 143).

وفي عصور الأدب العربي كان هنالك دائما شعراء يمدحون وملوك وأمراء يمنحون، "وكما سعى الشعراء إلى ترويج نموذجهم المدائحي فإنهم أيضا وضعوا أنفسهم تحت الطلب، حسب رغبة السوق والمشتري(...) والعطاء تدريب على الشحاذة وتعويد على الكذب(...) وهذا يعني أن الصلة ما بين الثقافة ونظرية الحكم صلة عضوية". (الغذامي، 2005، صفحة 157، 158)

وكما أن الشاعر يمدح تحت طائلة الإغراءات المادية والعطايا الثمينة، فإنه قد يمدح تحت طائلة التخويف والتعنيف "وهذا أفضى إلى ظهور شخصية المثقف الشحاذ، وظهور بلاغة الشحاذة التي ابتدأت بالشعر وامتدت إلى النثر". (الغذامي، 2005، صفحة 152)

في قصة عبد الحميد بن هدوقة "تمثال بلا رأس" قرأتْ الشخصية البطلة التي تحترف الكتابة إعلانا في مجلة حول مسابقة في كتابة القصة " قرأت ذات يوم إعلانا في مجلة عن مسابقة في القصة القصيرة، خاصة بالكتّاب المحترفين، بمناسبة ذكرى الحرية". (هدوقة ع.، قصة "تمثال بلا رأس"، 1995، صفحة 147)

ولسنا ندري ههنا الجهة التي تشرف على تحرير المجلة، كما أنه منذ الوهلة الأولى نشتمّ رائحة التسليع لأن المجلة أعدت مسابقة ولا شك أن المسابقة ترتبط بمكافأة أو جائزة قد تكون في صورة منح شهادة تقدير مصحوبة بمبلغ من المال تمنح للمتسابقين. "كانت الجائزة الأولى عبارة عن تمثال يقام في أكبر حدائق المدينة". (هدوقة ع.، قصة "تمثال بلا رأس"، 1995، صفحة 147)

وإذا كان من العادة أن يشير القاص إلى مكان مجريات القصة، فإن ابن هدوقة اختار طريقة التمويه والتعمية فلم يذكر مكان القصة. فأي حديقة كبرى سيرفع فيها التمثال؟ وأي مدينة ستتشرف بهذا التكريم؟ وهذا الإغفال المقصود لذكر المكان الذي تدور فيه مجريات القصة من الحيل الطريفة التي يلجأ إليها ابن هدوقة، فقد قرأنا له في قصة "أطلقوا النار على الكلمات"،"كل ما أدريه أن تلك المدينة كانت في مكان لا أعرفه، وفي زمان يختلف عن أزمنة الناس العادية، التي تقاس بالساعات والأيام والشهور". (هدوقة ع، قصة "أطلقوا النار على الكلمات"، 1990، صفحة 80)

ثم يصف لنا فكرة القصة التي أعدت من أجل المنافسة بين الكتاب "وكان موضوع المسابقة: "تصوير حياة كاتب في عهد نظام تعسفي" (هدوقة ع، قصة "تمثال بلا رأس"، 1995، صفحة 147)، وقد وردت هذه العبارة هكذا بخط داكن في بداية القصة لجلب انتباه القارئ "ليس من السهل على كاتب مثلي يعيش في مجتمع ديمقراطي، يتمتع بكامل حرياته، تصوير مجتمع يسود فيه القهر والاستبداد !" (هدوقة ع، قصة "تمثال بلا رأس"، 1995، صفحة 147)، ولسنا ندري هنا هل الشخصية تعني ما تقول، أم إن الأمر يتعلق بتسمية الأشياء بأضدادها، وهي طريقة طريفة عادة ما يلجأ إليها الكتاب والأدباء، "تخيلت أولا، أنه لكي يحيا كاتب في مجتمع تحت نظام تعسفي ما، لابد أن يكون إما انتهازيا وإما وصوليا أو لا يعرف من معاني الكتابة إلا الحروف كيف ترسم" (هدوقة ع.، قصة "تمثال بلا رأس"، 1995، صفحة 147)، فالانتهازية والوصولية كلتاهما تحمل معنى التسليع والترويج، ذلك أن الكاتب ينتهز الفرصة لنيل مكاسب دنيوية كالمال والمنصب والتقدير مقابل أدب زائف يخادع به المؤسسة القائمة "اخترعت الثقافة (الرغبة) و(الرهبة) ليكونا أساسا إبداعيا، فهما سبب للإبداع أولا وهما سبب للتميز الإبداعي ثانيا". (**الغذامي، 2005، صفحة 149**)

وفي هذا المعنى نقرأ تعليق الشيخ الطيب العقبي عن جريدة النجاح التي ظهرت بقسنطينة عام 1919 واستمرت إلى عام 1956 – دون احتساب مرحلة الحرب العالمية الثانية – وهي من الجرائد المعمرة التي كانت تداهن المستعمر بمعاداتها للحركة الإصلاحية فلم تجد مضايقة من المستعمر "تلك الجريدة (المسيرة غير المخيرة) والمشهورة بمحاربتها للأمة في شخص

علمائها وزعمائها المخلصين كلما كان دخل للفرنك في هذه المحاربة وسبيل إلى ما في الجيوب" (**العقبي، "نحن وخصماؤنا غير الشرفاء"، 1936، صفحة 2**)، وفي المقارنة بين هذه الجريدة وزميلاتها من الصحف التي ظهرت في الجزائر أثناء عشرينيات وثلاثينيات القرن الماضي، وأنها صحيفة ليس لها مبدأ يقول مُحَمَّد ناصر: "كانت تجعل المصلحة المادية والرواج الجماهيري فوق كل اعتبار". (**ناصر، 2013، صفحة 84**)

لكن شخصية الكاتب في قصة ابن هدوقة وقعت بين سلطة الإغراء بنيل الجائزة والسعي وراء الخلود عن طريق صنع التمثال وإقامته في أكبر حدائق المدينة من جهة، ومن جانب آخر محاولة تحقيق ذاته وكتابة أحلامه، فلجأ إلى الحلم ليكتب القصة في غياب سلطة الرقابة فوقع تحت سلطة الترويج والإغراء، ونال الجائزة وأقيم له التمثال "وأفقت من الحلم! والحلم كتب القصة ! **والقصة نالت الجائزة الأولى!** يا للسعادة! أصبحت من الخالدين! أقيم لي تمثال من مرمر، في أكبر حديقة بالمدينة!". (هدوقة ع، قصة "تمثال بلا رأس"، 1995، صفحة 157) لكن شخصية الكاتب يختلط حلمها بيقظة الحس والضمير وكان لسان حال الأديب الذي وقع بين مطرقة السلطة، وسندان الحفاظ على الذات يقول: "أقسم بكلمات الألم (...) أن لا يخدم القلم الذي أدمى مقعدي مالا ولا بندقية (...) لن أبيع كلماتي". (هدوقة ع، قصة "تمثال بلا رأس"، 1995، صفحة 156، 157) فالكاتب يرفض بيع كلماته سعيا وراء الترويج للسلطة أو تحت تأثير الإغراءات المادية من أجل نيل المال أو تحقيق الشهرة والخلود المزيفين. "فالكاتب بما هو فني ومبدع، لا بد من أن يترك لخياله أن يلعب دورا هاما في رسم الشخصيات. ورسمه للشخصيات يعتمد كثيرا على فهمه لشخصيته، وعلى قدرته على تمثيل دور الشخصية التي يريد رسمها، وعلى تصور التصرفات التي قد تصدر عن شخصية من الشخصيات تحت ظروف معينة" (نجم، (د ت)، صفحة 91، 92)، ونراه بعد ذلك يدخل في حالة نفسية مستعصية إذ يختلط حلمه بهوسه، والهوس حالة من الاضطراب والحيرة وقد تصير حالة من الجنون، إن خطاب الكاتب يقول من داخله أشياء ليست في وعيه، فهو بذلك يصرح بدلالات ومواقف متناقضة مع ما يقصده وهنا تظهر الشخصية المزدوجة أو ما اصطلح عليه المؤلف المزدوج "ظهر مصطلح المؤلف المزدوج كأحد إفرازات النسق الثقافي، والمؤلف المزدوج يشير إلى الثقافة بما لها من سلطة مهيمنة على الناقد والمنتج للنص والمستهلك للنص، فالجميع صنائع ثقافية تتحكم فيها الأنساق وتوجه حركتها". (هيكل، 2015، صفحة 24) وهذا ما حدث لهذه الشخصية التي تظافرت عليها قوى الرهبة والإغراء المادي من جهة والرغبة في تحقيق الذات وتجنب سخرية الآخرين من جهة أخرى. فيرى صورة تمثاله – أو بالأحرى صورة نفسه – يتعرض للسخرية والتهكم من طرف المارة "متى جيء بهذا القرد الحجري إلى هنا؟" (هدوقة ع، قصة "تمثال بلا رأس"، 1995، صفحة 159)، ثم يكلمه التمثال " أقلعني من هنا، أرجوك! لا تتركني هكذا، سخرية للساخرين! (...) إن لم تستطع قلعي، حطم رأسي حتى لا يبقى جزء واحد منه! اتركني تمثالا بلا رأس" (هدوقة ع، قصة "تمثال بلا رأس"، 1995،

صفحة 160، 161)، فيأخذ الكاتب فأسا كانت إلى جانب التمثال ويشرع في تحطيم رأس التمثال كي يسلم من سخرية المارة ويحرر نفسه بالمرة لأنه صار ميتا حين انصاع إلى الترويج للسلطة وإغراءات المال والشهرة فتحول إلى تمثال حجري.

وفي الأخير يقتاد إلى السجن لأنه وقع في حالة من الجنون وقام بتحطيم الآثار الوطنية.

4. الخاتمة:

– تسعى السلطة إلى الترويج لإيديولوجيتها وتقريب نفسها من الجماهير، ومن عامة الناس.

– تستعمل في هذا المسعى أساليب الترويج والدعاية، كما قد تلجأ لآليات القسر والقهر.

– تستعمل السلطة المثقف والكاتب والأديب من أجل الترويج لأفكارها والتسويق لمنهجها.

–الأديب بدوره قد يكون انتهازيا وصوليا، فينصاع للمؤسسة وينسجم معها من أجل تحقيق مآرب وأهداف مادية أو دنيوية، وهنا يدخل أدبه دائرة التسليع، وتتحول العلاقة بينه وبين المؤسسة إلى علاقة تبادل المنفعة.

– تستخدم المؤسسة في سبيل احتواء الأديب وترويضه، وأدلجة الأدب الجوائز والأموال وأشكال الإغراء المختلفة.

– قد يرفض الكاتب والأديب أساليب الإغراء والترويج والاستدراج من أجل تحقيق ذاته، وفي هذه الحال يمتلك الأديب القدرة على الإفلات من سلطة المؤسسة باللجوء إلى الخيال والحيل الفنية كالتمويه والتعمية من أجل الكتابة، وهذا من شأنه أن يكسب الإبداعات الأدبية جانبا جماليا.

6. مراجع البحث:

1 – أحمد رضا حوحو. (1982). مع حمار الحكيم. الجزائر، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

2– الطيب العقبي. (3 جويلية، 1936). "نحن وخصماؤنا غير الشرفاء". جريدة البصائر الأولى(26).

3– سمير بن هدوقة. (24 جانفي, 2018). مثقفون جزائريون. تم الاسترداد من أنيس، بن هدوقة: "السيرة الكاملة لعبد الحميد بن هدوقة". http://www.benhedouga.com/content/%D8%A7%D9%84%D8%B3%D9%8A%D8%B1%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D9%83%D8%A7%D9%85%D9%84%D8%A9-%D9%84%D8%B9%D8%A8%D8%AF-%D8%A7%D9%84%D8%AD%D9%85%D9%8A%D8%AF-%D8%A8%D9%86-%D9%87%D8%A

4– عبد الباسط سلامة هيكل. (14 6, 2015). "النقد الثقافي مفاهيم وأبعاد نحو نظرية جديدة في النقد. (جامعة خنشلة، المحرر) مجلة كلية الآداب واللغات، 1(1).

5– عبد الحميد بن هدوقة. (جانفي, 1990). قصة "أطلقوا النار على الكلمات". (مطبعة دحلب، المحرر) مجلة الرواية(1).

6– عبد الحميد بن هدوقة. (ماي/ جوان, 1995). قصة "تمثال بلا رأس". مجلة الثقافة(8).

7– عبد الله مُحَّد الغذامي. (2005). النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية (الإصدار 3). الدار البيضاء/ بيروت، المملكة المغربية/ لبنان: المركز الثقافي العربي.

8– عمر الدسوقي. (د ت). نشأة النثر الحديث وتطوره (الإصدار 2، المجلد 1). مصر، مصر: دار الفكر العربي.

9– فرويد سيجموند. (1986). الهذيان والأحلام في الفن. (جورج طرابيشي، المترجمون) بيروت، بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر.

10– مُحَّد ناصر. (2013). تاريخ الصحافة العربية الجزائرية (الإصدار طبعة خاصة، المجلد 1). الجزائر، الجزائر: عالم المعرفة.

11– مُحَّد يوسف نجم. (د ت). فن القصة. بيروت، لبنان: دار الثقافة.

12- مصطفى ولد يوسف. (2013). سؤال الكتابة.. هواية أم هوية؟ في قصة (تمثال بلا رأس) لعبد الحميد بن هدوقة. (جامعة البويرة، المحرر) مجلة معارف، 4(7).

13-هارفارد بزنس ريفيو. (28 أفريل, 2020). مجرة. تم الاسترداد من https://hbrarabic.com/%D8%A7%D9%84%D9%85%D9%81%D8%A7%D9%87%D9%8A%D9%85-%D8%A7%D9%84%D8%A5%D8%AF%D8%A7%D8%B1%D9%8A%D8%A9/%D8%A7%D9%84%D8%AA%D8%B3%D9%84%D9%8A%D8%B9/